مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

المتلقي بين الوعي واللاوعي

(ابن المقفع، ومقدمات كليلة ودمنة نموذجا)

نشوى مراد عبد اللّه

باحثة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

DOI: 10.21608/qarts.2021.80566.1093

– تاريخ الاستلام: ١٣ يونيو ٢٠٢١ م

– تاريخ القبول: ٢٨ يوليو ٢٠٢١ م

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد 52 (الجزء الثالث) لسنة 2021

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الالكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الالكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

المتلقي بين الوعي واللاوعي (ابن المقفع، ومقدمات كليلة ودمنة نموذجا)

إعداد
نشوى مراد عبد الله
باحثة ماجستير بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي
ha2604000@gmail.com

الملخص باللغة العربية:

جاء هذا البحث ليوضح كيفية تعامل المتلقي مع الكتاب، ويوضح أثر الوعي واللاوعي في ذلك، فجاء البحث منقسما إلى شقين؛ الشق الأول: تناول ابن المقفع وبعض الآثار التي أثرت فيه ومن ثم في كتاب كليلة ودمنة، والتي تنوعت بين اللغة والثقافة وخاصة أن لغة الكتاب مخالفة للغة ابن المقفع الأصلية، وكيف كان تعامله معها بوصفه متلقِ؟ والشق الثاني: وقفت فيه على مقدمات كليلة ودمنة؛ لما فيها من نقاط مهمة تخص متلقِ هذا الكتاب بصفة خاصة، والمتلقي الأدبي بصفة عامة، وجاء الكتاب مشتملًا على أربعة مقدمات؛ أولها كانت لمحقق هذا الكتاب، والباقين من متن الكتاب نفسه، فجاء هذا البحث ليقدم قراءة سريعة في هذه المقدمات، وبيان ما فيها من خطاب يخدم المتلقي وعلاقة (الوعي واللاوعي) في إتمام هذه العملية، حيث يتم من خلاله فك شفرات النص، فكيف يتعامل القارئ مع النص من خلال وعيه؟ وكيف له أن يوظف اللاشعور عنده في خدمة القراءة نفسها؟ فمن خلال العروج على وضع ابن المقفع وتعامله مع المؤثرات التي أحاطت به ومن خلال مقدمات الكتاب تتضح بعض النقاط التي توضح ذلك.

الكلمات المفتاحية: الوعي، اللاوعي، المتلقي.

المقدمة:

بات المتلقي مسئولا عن استنباط المعنى وشريكًا للمؤلف، فهل لهذا المتلقي أن يُنتج ما يُنتجه بمعزل عن تأثير البيئة من حوله؟ وللإجابة على هذا السؤال نحتاج إلى معرفة طبيعة وعي المتلقي ولا وعيه الذين من خلالهما يحتفظ بأثر الظروف المحيطة من حوله، وتخيرتُ ابن المقفع مثالًا لذلك المتلقي بوصفه متلقيًا تعرض لكثير من الظروف الاجتماعية، والسياسية، والثقافية...إلخ، فكان في حضرتها متلقيًا، وينتقل البحث إلى بعض الأجزاء العملية، التي وجدتها تخاطب المتلقي بصفة عامة، ومتلقيها هي بصفة خاصة ، وهي مقدمات كليلة ودمنة لما فيها من نقاط يستعين بها المتلقي لتحقيق قراءة مفيدة بين دفتي الوعي واللاوعي[١] .

الأهداف:

- **توضيح العلاقة بين الظروف المحيطة بالكاتب – بوصفه متلقيًا–، وتأثيرها على وعيه، ومن ثم إنتاجه الأدبي.**
- **توضيح دور الأدب في مساعدة المتلقي؛ كي يصبح قارئًا واعيًا يدرك كل القيم التي يحملها النص الأدبي، لا القيمة الجمالية فحسب.**
- **تحليل مقدمات كليلة ودمنة، وهل للمتلقي أن يستنتج منها ما يخدم وعيه، وعلاقته بالأدب والمجتمع معا.**

أثر الحياة الفكرية والثقافية في ابن المقفع:

يقول ابن المقفع في أول سطور هذا المؤلف: "هذا كتاب كليلة ودمنة، وهو مما وضعه الهند من الأمثال والأحاديث"[٢]؛ وربما ذكر ذلك لأن هذا يزيد الكتاب قيمة؛ فما يُنتج عن الهنود من حكمة معروف كيف تكون! ومن ناحية أخرى يبعد عن مباشرته للكتاب فهو ناقل، لا مؤلف، وهذا لأسباب سياسية؛ حيث إن علاقته بالحكام العباسيين في ذلك الوقت لم تكن جيدة ، فتخفى ابن المقفع وراء ستار النقل والترجمة حتى يبرأ من مسألة التأليف وأسبابه، ونتائج نشره بعد ذلك، وهذا يلفت الانتباه إلى عملية الإدراك والوعي التامة للنصوص في هذه الفترة، فالكاتب يفهم ذلك والمتلقي _أيضاً_، فما قلق حكام ابن المقفع

منه إلا لمعرفة وقع ما ينتجه على نفوس المتلقين، لا لبراعة المتلقون فحسب، وإن كان المتلقين في ذلك الوقت أفضل كثيرًا من غيرهم؛ حيث إنه عصر انتشرت فيه الكتابة، والقراءة، وارتقاء المستوى العقلي[٣]، والأمر الثاني الذي يجعل المتلقي يأخذ، ويزخر بكل ما في الكتاب، بل إن الشيء الآخر هو أسلوب ابن المقفع، وما فيه -كما سأحاول توضيحه.

الآثار المنعكسة في كتاب كليلة ودمنة:

أثر الثقافة الفارسية في الكتاب:

لم يكن ظهور أثر الثقافة والحضارة الفارسية في كليلة ودمنة غريبًا، وكذلك في جميع أعمال ابن المقفع؛ فهو فارسي الأصل من ناحية، وحضارته تستحق الفخر من ناحية أخرى، وعاش بين أحضان العربية وقضى فيها فترة إبداعه الأدبي، فكيف كان حال المقفع بين الأثر الفارسي والعربي؟

إن زمن كتابة كتاب كليلة ودمنة وترجمته زمن مزدوج الثقافة، كانت الثقافة فيه مزيجًا من الثقافة العربية والفارسية، ويكون لهذا التباين أثره في كتابة النصوص من حيث الشكل والمضمون، فتتداخل العادات والأفكار من ناحية ، وتتأثر اللغة، وأسلوب الكتابة من ناحية أخرى، كما يقول الطاهر لبيب: "إن انقسام المجتمع إلى طبقات، أو إلى طوائف تنجم عنه اختلافات في مفردات اللغة، وقواعدها، وفي الصوتيات، والأسلوب... وليس من المستبعد إمكان وجود توزيع تواتري حسب المنطقة، أو حسب الطبقة الاجتماعية[٤]."

وعلى الرغم من ذلك وازدواجية الفكر لدى ابن المقفع جاء هذا في خدمة أعماله وخاصة في كتاب كليلة ودمنة، الذي جاء متناسقا فكرًا وأسلوبًا، فمن ناحية اللغة، كانت الفارسية متداخله مع العربية، وهذا لأسباب كثيرة؛ منها: كثرة الأعاجم وخاصة الفرس- ومكانتهم السياسية- في ذلك الوقت ما جعلهم يتغلغلون وسط العرب، الأمر الذي أدى إلي انتشار اللحن، وفساد لغة التخاطب الفصحى[٥] ، ومن ناحية أخرى تغير حياة العرب، وانتقالهم من حياة البداوة إلى التحضر حتم عليهم استعارة بعض الألفاظ من الفارسية، وكأنها مناسبة أكثر لحياة اللهو والمجون التي أخلعوا عليها ، فبعد نقل الخلافة من دمشق إلى بغداد ازداد تدخل العنصر الفارسي وانتشاره بين العرب، حيث إنهم شغلوا أهم المناصب السياسية والإدارية في نظام الحكم؛ وهذا لحاجة الحكام العرب لما كان لديهم من

تنظيم نظام الحكم والإدارة، فلم تأتِ إضافات العنصر الفارسي قاصرة على الدواوين ونظام الحكم، بل غيروا أيضا في الحياة الاجتماعية، ولم يكن هذا التأثير من ناحية الفرس فقط، بل أدى استيطانهم بلاد العرب إلى أن يأخذوا الكثير من الثقافة العربية، وأول ما أخذوه اللغة العربية واتقانها، ومعرفة تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وكانت الثقافة الفارسية آنذاك ممتزجة _أيضا_ بالحكمة والثقافة الهندية* واليونانية التي تم نقلها أثناء انتشار حركة التراجم والنقل في عهد أنوشيروان(٦)، هذه بعض الظلال الفارسية التي كانت في عهد ابن المقفع والتي من بينها خرج مؤلفه (كليلة ودمنة)، فماذا عن الأثر العربي؟ وكيف تعامل مع اللغة الجديدة والحياة الجديدة التي انتقل إليها؟ فكيف كان وضع الكُتاب الفرس – وابن المقفع زعيمهم– وسط العرب، وكيف كان الانصهار في الثقافة العربية، وما حجم هذا الانصهار؟

أ- يعتبر موضوع إسلام ابن المقفع ركنا محوريا لدى بعض النقاد، وبالرُغم من ذلك لم تكن هناك حاجة كبيرة للاستفاضة في زندقة ابن المقفع، وقصة إسلامه، وما انتشر عنها في ذلك الحين، حيث كان كثير من الفرس المسلمين مسلمين بالقول فقط، وهذا لأسباب اجتماعية، وسياسية، واعتقادًا منهم أن إسلامهم يسهل عليهم هذا الانصهار، مما يساعد –أيضا– على اكتمال الهيكلة الخاصة بفردهم وسط جماعات العرب المسلمين. ولكن يمكن فهم ذلك واستخلاصه من بعض كتابات ابن المقفع إذا ما تم إمعان النظر فيها، فلا يمكن أن تأتي منسلخة عن هويته الحقيقة.

ب- تعلَّم ابن المقفع اللغة العربية بعمق حتى استطاع أن يفكر من خلالها بدليل قدرته على اتقان فن الترجمة إليها من اللغات الأخرى، كاليونانية، والفارسية، ولكنه لم يتعامل مع اللغة العربية، أو بها بمعزل عن قوميته ووطنيته الفارسية، أو حتى ما أخذه عن اللغة والثقافة اليونانية، فكانت لغته مصبوغة بهذين اللونين، وكانت تصعب عليه العربية في مواضع كثيرة من ناحية المعاني والألفاظ، ومن ناحية المرونة النثرية أثناء الكتابة نفسها، فكان لهذا التداخل أمران؛ أحدهما: خاص بالتنوع الثقافي النابع من التنوع اللغوي، والأمر الآخر: يخص بعض الثقل الذي كان يعانيه ابن المقفع في معظم كتاباته، وخاصة في النحو، فكان يُوفق كثيرا، ويخطئ _أحيانا_ على حد قول بعض النقاد(٧)، وإذا انتقلت إلى مصادر ثقافته الجديدة (العربية، الإسلامية) أجدها

كثيرة بين عشرة الملوك، والاختلاط بطبقات المسلمين المتنوعة من حيث الأصل، والمكانة الاجتماعية ، ولكن الجدير بالذكر هنا هو قراءات ابن المقفع، فما كان لكاتب مثله أن يصل إلى ما وصل إليه من مكانة أدبية بين كتاب جيله دون الإلمام بما كتب العربُ، وما كُتب عن العربِ، فكيف كانت قراءته لثقافة الآخر، وكيف كان تقبله لذلك الآخر، وخاصة إذا ما تحول هو نفسه لجزء من ذلك الآخر، وأصبح بعد إسلامه واحدًا من جماعته؟

ولتفسير هذا أذكر عدة نقاط من أهمها:

أ- أن الآخر (نفسه) منحه فرصة الانصهار معه، فلم يفرق الإسلام بين عربي ولا أعجمي، فكان ذلك يشعر غير المسلم بالدفء عند الاقتراب من هذا الدين الحنيف، وتعد هذه النقطة هي القاعدة الأولى التي انطلقت منها فكرة تقبل الآخر عند ابن المقفع، أو غيره من العرب وغيرهم.

ب- كما ساعده إلمامه بأكثر من ثقافة على التقرب من الحكام وأولي الأمر، مما جعله أكثر اطمئنانًا، فكان الحكام في هذا العصر مولعين بالعلم والتراجم المتنوعة من جُل الثقافات، فما كان لابن المقفع إلا أن يبدأ في عمل الترجمة عن اليونانية، والفارسية، وخاصة الفارسية بحكم أنها لغته، ولغة قومه، فكانت تُحيي هذه التراجم شيئًا من الفخر في نفسه، لعلم قومه الذي ينقله، ويعد هذا الشعور أحد الانعكاسات اللاواعية التي تعزز فكرة تقبل الآخر، عند ابن المقفع وتشعره بأنه لم يكن أقل قيمة منه.

ج- ثم يظهر دور الوعي لدى ابن المقفع في عملية تقبل الآخر، فكل منهما أصبح يشترك في مشاعر إنسانية واحدة بعيدا عن المشاعر الخاصة بالفرد نفسه، فأصبحت حاجة الجماعة أكبر من هذه المشاعر الفردية، فالتفت جميعها حول مصالح ومبادئ مشتركة، من أهم ما يحركها الوحدة الدينية والوطنية، فكان لقراءاته العربية في كتب الأدب دور كبير في تعزيز الثقافة العربية لديه، فعملت هذه القراءة على توطيد الفكر والتاريخ العربي من ناحية، وأحياء وطنيته القديمة والبحث عنها بين طيات هذه الكتب من ناحية أخرى ؛ بمعنى أن القارئ عندما يتناول نص أجنبي يكون في قراءته جزء شخصي يبحث فيه عن تجربة تلمسه، أو ثمة علاقة تربطه بثقافته، وغالبا ما يحدث ذلك من إسقاطات يسقطها هو على النص من خلال واقعه، أو ثقافته وثقافة قومه، ومن هنا تظهر فكرة

تقبل الآخر عند المتلقي أثناء تناول النص؛ فمرة يرى القارئ هذا النص ذاته التي خرجت من داخله لتحاوره، وتكشف له ما لم يكن يعلمه عن نفسه، وتارة أخرى يراه الآخر الذي يقبله، ويريد التمايز عليه تارة أخرى، وبين هذه وتلك يتبادل الوعي واللاوعي دور البطولة في سير هذا المونولوج الداخلي والخارجي معا، الذي يحدث مع القارئ أثناء قراءاته للنص الواحد.

ولكن استطاع ابن المقفع ان ينثر كتابه بلغة عربية جميلة ومميزة، كما أخذت الفارسية من لغة العرب الأسلوب المهذب والخطاب القيم، فأصبحت اللغة لها شبه للثقافة التي تتمثل في أهلها، وجاء هذا التباين خادمًا لأسلوبه وبلاغته؛ فجاءت بلاغة المقفع في الكتاب خاصة جدًا، لها من المتعة ما يجعلك تنهي فصلًا، ولا تطيق الانقطاع، وتجد متعة في الاسترسال في القراءة، فجاءت بلاغته مطابقة لوصفه لها حينما قال "هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها"(٨)، حقيقة أروع من عرف البلاغة. فلم يكن التأثر الثقافي عند ابن المقفع عربيًا خالصًا أو فارسيًا خالصًا، ويضيف طه حسين " إن الأدب الفارسي الحي إنما نشأ بعد أن اتصل الفرس بالعرب وبعد أن تعلموا العربية "(٩).

كان ابن المقفع قادرًا على توحيد وعي المتلقين مهما اختلفت مرجعيتهم، فوجد فيه القارئ لقاءً بين الوعي المدرك (الحالي) والوعي المستقبلي، فيجد له الفارسي من تراثه خادما لمستقبله، وهذا ما يحدث مع العربي، وأي قارئ للكتاب يستطيع أن يجد فيه مبتغاه ومرجعيته الاجتماعية، والثقافية، والحضارية الخاصة، وهذا يعود لبراعة الكاتب الذي كان ملما بأكثر من ثقافة.

الأثر الديني:

ظهر أثر الإسلام واضحا جليا في مواضع مختلفة من الكتاب، على الرغم من أن أغلبية الفرس غلب عليهم أثر دينهم القديم، مما يلفت الانتباه إلى تميز الإدراك العقلي لابن المقفع، ونظرا لظهور الكتاب مع وجود فرقة المعتزلة التي اعتمدت على العقل في قراءتها الخاصة ، وكان القاسم المشترك بينها جميعا هو العقل ، ومن الملامح الإسلامية في كتاب كليلة ودمنة الذي ذكرها مجدي عبد المعروف (١٠): العمل، الذي يراه ابن المقفع مكملا للعلم فيقول: " والعلم لا يتم إلا بالعمل، والعلم هو الشجرة، والعمل هو الثمرة " وكان العمل

من أهم ما حثنا عليه الدين الحنيف وفي قوله تعالى: "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ "﴿٤٠﴾ [١١] ومن سنة نبينا ما يؤكد تشريع رب السموات والأرض، "فعن سعيد بن عمير عن عمه قال: سئل رسول الله" (صلى الله عليه وسلم): "أي الكسب أفضل، قال كسب مبرور" [١٢] ، إن العمل والكسب الطيب أمران محمودان ، حثَنا الله عليهما في كتابه الكريم وسنة نبيه.

ويظهر التأثر جليًا في قوله "ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم، ويحب للناس ما يحب لنفسه [١٣]"، وجاء في فاتحة باب " إيلاذ وبلاذ وإيراخت" إنه نام الملك ذات ليلة، فرأى في منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوبا يريد جمع النساك ليفسروا له رؤياه، فاجتمعوا، وقالوا: أمهلنا سبع ليال فأمهلهم، فنجد هنا التأثر واضحًا وجليًا بقصة سيدنا يوسف، والرؤية التي كانت لعزيز مصر، وإن اختلف بعد ذلك في باقي القصة.

كما ظهرت آثار لبعض الأديان الأخرى، مثل: بعض الديانات الهندية، حيث انتقلت الثقافة الهندية إلى العرب عن طريق الترجمات الفارسية، أو عن الفرس أنفسهم وبعض الهنود الذين جاءوا بلاد العرب للكسب والعمل ،وانتشرت الحكم الهندية، والقصص، والأساطير الهندية بين العرب، مما كان له أثره في بعض الكتابات العربية أمثلة: (السندباد البحري)، و (ألف ليلة وليلة)، وجاءت في الكتاب بعض الحكم الهندية المنتشرة بين الناس، وظهرت في كليلة ودمنة بعض الأفكار التي تعود في أصلها للثقافة الهندية أمثلة: فكرة تناسخ الأرواح، وأنها لا تموت، وأنها تنتقل من بدن لبدن، والتي عكستها قصة الجارية التي تحولت إلى فأرة، فلقد تأثر ابن المقفع بهذه الثقافة مثله مثل باقي العرب أو الفرس، كما أدى هذا الانتقال إلى تداخل الثقافات العربية الإسلامية مع غيرها ؛ ففي باب اللبؤة والشعهر يقول ابن المقفع : "فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار، وأخذت في الزهد والنسك والعبادة"، فيتحول الطعام لوسيلة الهدف منها العيش، ثم العمل على الحصول على متعة أكبر في الزهد والنسك، كما أن صورة أكل الثمار تأتي على خلاف صورة اللحم فهي تحتاج إلى طاقة وجهد أقل، وتتناسب مع النساك الذين أرادوا أن يقضوا كل وقتهم عبادة وزهد، ولكنها لم تكن شرطًا، ولم تكن بشكل كلي في الثقافة الإسلامية،

فمنهم من يتركه على أن يهذب نفسه ولو فترة من الوقت كي يشعر بحال الفقير، حيث إن الامتناع عن أكل اللحوم واستبداله بما هو نباتي أصله بوذي. (١٤)

وفي قوله على لسان ايلاذ: "إن الذي قوله واحد لا يختلف هو الله، الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لقوله"(١٥) ، إن المفارقة أو السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو متى وصل ابن المقفع لهذه المرحلة من هضم كل ما هو جديد في حياته، وكيف كانت علاقته بالآخر، وكيف تم الاندماج بينهما، وكيف تعامل مع ما يختزنه ذهنه عن ديانة ومجتمع ،وثقافة مغايرة لواقعه وكل المبادئ، والثقافة الجديدة التي يتكون منها وعيه الحالي؟ فكان هناك تداخل بين ماضٍ يمثله اللاوعي، وحاضر مختلف عن هذا الماضي ويمثله الوعي، كل هذه الاستفسارات تُوجه لابن المقفع المتلقي حينما انتقل إلى حياته الجديدة التي أضفت تغيرا هائلا عليه بوصفه متلقيًا، حيث كان قارئًا جيدًا لكل الثقافات الأخرى، بما فيها الأعمال العربية الخالصة التي تعكس ولو شيئًا بسيطًا من حياة هؤلاء العرب، كما قرأ في اليونانية والهندية، وتعلم منهما كثيرًا، ويتناول البحث أكثر هذه الثقافات تأثيرًا على أعماله وعلى شخصه؛ وهي الثقافة العربية، فلم تكن لغة ابن المقفع هكذا إلا من وراء القراءة، وقصد التلقي والتعلم ، فلا يمكن للاختلاط وحده أن يعينه على فهم العربية وتمكنه من النقل إليها، كما أن فعل التلقي هذا لا يخص القراءة فحسب إنما كان تعامله مع الغير والاحتكاك به تلقيًا –أيضا– فلا يمكن إغفال هذا الجانب من التلقي؛ لأثره الواضح في التلقي الأدبي، وقراءة النصوص، ولأن المتلقي لا يتعامل مع النص بمعزل عنه.

هذا عرض لبعض الآثار التي ظهرت في كتاب ابن المقفع، وكانت مرتبطة به، وبما تلقاه في حياته التي وضح من خلالها بعض المؤثرات التي أثرت فيه، فكل مثير، أو موقف يحدث لنا، أو نتعرض له يجعلنا في حضرته متلقين.

مقدمات الكتاب:

قبل الانتقال إلى متن الكتاب، والجزء التطبيقي فيه، أقف على مقدمات هذا الكتاب؛ لما لمسته فيها من أهمية لموضوع البحث، فكثيرا ما لمست هذه المقدمات بعض الأفكار الخاصة به من ناحية علاقة الأدب بالقراء أو المجتمعات ووعي أفرادها، فمن خلال ذلك أحاول جاهدة الربط بين ما في هذه المقدمات والفكرة المباشرة للبحث، أو ما يخدمها

ويُمثل تمهيدا للفصول القادمة، وقد تُوج الكتاب في بدايته بعدد من المقدمات؛ أولها تُنسب إلى المحقق، واثنتين منها نقلا عن النسخة السريانية الأولى، ومقدمة عرض الكتاب الخاصة بابن المقفع.

المقدمة الأولى:

شملت مقدمة المحقق على تاريخ ترجمات الكتاب، بداية من النسخة الأصلية، وحتى أحدث هذه الترجمات من وقت تحقيقه للكتاب، ثم انتقل بعد ذلك لحياة (ابن المقفع) وثقافته، وعصره، وطبيعة الحياة الاجتماعية، والسياسية، وكان مهتمًا ببيان علاقة كل هذا بالكتابة عامة، وبترجمة (ابن المقفع) لكليلة ودمنة خاصة وأن هذه الترجمة ما كانت إلا "بيانا واضحا، وشرحا مستقصىً لأحوال التاريخ في أيامه، حتى تستخلص من حياة الفرد حياة أمته، وتستنبط من أحواله أحوال جيله"، يربط المحقق هنا الوعي الفردي، بالوعي المجتمعي، وأنه انعكاس له، خاصة إذا ما كان بين أفراده مثقف، وكاتب ومتلقٍ واعٍ، مثل. (ابن المقفع)، ويضيف أن منشأ هذا اللون ومصدره من الأعمال وهذه الحركة العلمية يرجع إلى الآراء الاجتماعية في السياسة، فمنها تتولد هذه الألوان المختلفة من العلوم والفنون، ثم انتقل إلى علاقة الكتاب بكل ما يحيط به، وكيف كان صداه بين القراء في عصره، وكيف كان أثر هذا العصر في الكِتاب نفسه، هذه أهم نقاط مقدمة المحقق، وربما تعود رؤية المحقق إلى تأثر المتلقي المعاصر بكل وسائل التجديد والحداثة من حوله، مما جعل الأشياء أكثر قربا، وارتباطا، وبالتالي أكثر تأثيرا، ونتيجة لهذا التشابك الذي يعاصره لم يستطع التعامل مع النص بعيدا عن الظروف المحيطة به، أو بمعزل عما يمتلكه هو، فلم يتعامل مع النص على أنه معنى محدد عليه الإقرار به ، بل هو نموذج يعكس رؤية لا تكتمل أركانها إلا من خلاله هو والمتلقي، وما كان للمحقق أن يعكس رؤيته الخاصة إلا من خلال نافذة الوعي المرنة الخاصة به.

المقدمة الثانية:

لـ(بهنود بن سحوان) ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل (بيدبا) الفيلسوف الهندي (لدبشليم) ملك الهند كتاب كليلة ودمنة، فهو يراه يظلم، ويتجبر، ولم يستطع

الصمت على الرغم من كلام تلاميذه في ألا يغوص في مثل هذه المواجهة الخاسرة التي تضره، ولا تجلب له إلا النكبة.

أسعى هنا إلى كشف بعض النقاط التي تعكس العلاقة المتبادلة والطردية بين الأدب والقراء:

أ- دور المثقف في المجتمع: حيث إن دبشليم الحكيم لم يكن وثقافته بمعزل عن أمور مجتمعه، بل إنه واجه ما لم يقبله ضميره، ولا يتفق مع مبادئ علمه، ولم يخش في ذلك عقوبة السجن، حتى أنه بعد ما سجن، وخرج من السجن، وعُين وزيرًا لم يغتر بالمنصب؛ لأنه عالم، وحكيم حق، لم يكن مبتغاه من ذلك الشهرة، ولم يكن علمه على زيف، ويُلحظ _أيضا_ نوع من أنواع الحكام، الذي اغتر بالمنصب، والجاه والسلطان، وكثرة الحاشية من حوله، كما أن الحاشية هذه من أكثر الأشياء خطورة على الحاكم فإن فسدت، تتحول إلى شياطين في أثواب البشر فتحول كل شيء يراه الملك لخدمة مصالحهم الخاصة ، فطغى الملك وظلم، ولكنه في وقت ما اتبع بصيص النور الذي كان باقيًا داخله، والذي ظهر بقرب أحد الصادقين منه (بيدبا)، فاستمع له، وطلب منه كتابا فيه خلاصة تجربته لعله يفيد منه هو، وغيره من بعده.

ب- دور الفلاسفة والحكماء والأدباء: في إعانة الملوك على تحقيق العدالة بين أفراد الشعب، فإن الملوك تسكرها كراسي الحكم، وواجب الحكماء أن يبلغوهم بما يرونه، وما يساعدهم على الإفاقة من سكرتهم مهما حدث، ومن ثم يقول (ابن المقفع): "لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سورة كسورة الشراب، فالملوك لا تفيق منها إلا بمواعظ العلماء، وأدب الحكماء"[١٦]، وفي هذه النص يلاحظ ثناء من ابن المقفع، واعتراف على حكمة من قبله، وإن من أراد أن يتأدب عليه سماع كلام من سبقوه، ويتدبره في صمت، إذا لم يستدعِ ذلك استفسارًا كما أنه يوضح السبب الذي ساق (بيدبا) إلى ذلك وهو التقدم بنصح هذا الملك، فتمثل في شيئين هما:

– حق الناس عليه الذي صوره كدور الطبيب الذي واجبه الحفاظ على أجساد الناس من المرض.

– حفاظا على تاريخ الحكماء ودورهم، فلا يأتي من بعده، ويضم اسم بيدبا الحكيم، ودبشليم الطاغية في حقبة زمانية واحدة، دونما يذكر لبيدبا دورًا في ردع ذلك، أو تقويمه، وما كان له من ذلك إلا الخوف على وضع الحكماء ودورهم، قاصدا بذلك تشجيع من يأتي من بعده فيقول"...فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرا."(١٧)

ج– قيمة العلم والعلماء: في إعانة الملك على تحقيق النصر والتقدم في الدولة، التي تتمثل في قصة العجول المصنوعة من الخشب التي تتحرك على عجلات، والتي مكنت (الإسكندر) من هزيمة أفيال ملك الهند، فكانت حيلة حربية عسكرية رائعة أنجزها وحققها العلماء والصناع، فلا يستطع الملك وحاشيته ومقاتلوه التقدم دون عقل أديب حكيم، وفيلسوف مثقف، وآخر عليم يخترع ويطور، فكل منهم يكمل الآخر ويعينه، ويصب في النهاية في المصلحة العامة للدولة والمجتمع،(١٨) وبالعودة لقصة العجلات الحربية أضيف أن هذه القصة من القصص الحقيقة التي جاءت لتقوي الرابطة العقلية بين المتلقي وبين ما احتوى عليه الكتاب، فجاءت القصص الخيالية بجانب القصص الواقعية فمنحتها ثوب المصداقية، مما ساعد المتلقي على إسقاط الحِكم المستفادة من القصص الحقيقة على مواقف حياتية حية وتحارب واقعية معاشة، ولكل قارئ اسقاطاته ووقعها على نفسه.

ومن هذه المقدمة يلاحظ دور بيدبا الذي كان كاتبا، وحكيما، وفيلسوفا ، كما تنعكس للقارئ النظرة العامة للأدب، وللمتلقي في ذلك الوقت كم كان هناك وعي ثقافي عام يتميز به كل طبقات المجتمع يختلف توظيفه من جماعة لأخرى حسب مصلحتهم الخاصة، فهناك مثلا جماعة الوشاة ، وجماعة طلاب العلم (طلاب بيدبا الحكيم) وعامة الشعب، وبيدبا وبقية الأدباء ، والملك نفسه ، وحاشيته كل هؤلاء متلقين تلقوا أحداث مجتمعهم قبل أن يتلقوا نصوصه وأعماله الأدبية فبات الوعي عندهم يقظًا مرتهنًا بكل ما يحدث حولهم ، كلٌ منهم يعرف قيمة العمل الأدبي، وقيمة قول يخرج من بيدبا الحكيم والأديب، بينما اختلفت ردود أفعال كل جماعة منهم، فمنهم من يخشى منصبًا ، ومنهم من يخاف أن ينكشف أمره، ومنهم من يكون على قدر عالٍ من الثقافة لكنه يخشى العقوبة ، ومنهم العامة التي تنتظر أن تؤتى أُكل هذا العمل فيعود عليهم بالنفع والإصلاح، وهذا هو المقصد من جزئية الوعي الفردي والجماعي التي تم ذكرها في الفصل النظري، يتحقق الوعي القرائي

عندما يرتبط التلقي بوعي المتلقين، والأهم من ذلك الربط طبيعة هذا الوعي فلابد أن يجعل القراء أهلًا لفهم الواقع ومن ثَّم استخراجه من بين طيات النصوص، فيأتي عليهم التأويل بفائدة.

المقدمة الثالثة:

أضافها (برزويه) الطبيب الذي أرسله (كسرى الملك) إلى بلاد الهند متخفيا، لينقل نسخة كليلة ودمنة، ويترجمها إلى الفارسية، مما كلفه كثير من الأموال والنفقات؛ والتي تعكس حرص الملك على اقتناء مثل هذا العمل القيم كي يفيد به أهل فارس، ولتقديرهم للعلم والحكمة، فذهب (برزويه) إلى بلاد الهند متعلما، مترجما، وناقلا، لحكمة الهند وثقافتها التي عرفت بتميزها بين أمم ذلك العصر، فما كان ل(برزويه) إلا أن يضيف مقدمة تخص هذه الرحلة وتفاصيلها بدأها بربط إيقاظ العقل بالأدب فقال " ... لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ... إلا بالعقل ... والعقل مكتسب بالتجارب والأدب، وله غريزة في الإنسان، كامنة كالنار في الحجر لا تظهر ولا يُرى ضوؤها حتى يقدحها قادح ... وكذلك العقل كامن في الإنسان، لا يظهر حتى يظهره الأدب، وتقويه التجارب."[١٩] قول مثل هذا يعكس إدراكه لقيمة التلقي والمتلقي، وأن كل هذا الجهد ما بُذل إلا لمساعدة هذا المتلقي في تغذية روحه، وقدح عقله بباب من أبواب الحكمة والفلسفة الهندية ، لم يكن هذا فحسب بل كان مدركًا _أيضا_ لعلاقة الوعي بالتلقي والقراءة فهو يرى في العقل مردًا لكل شيء حميد، وكل الغايات المدركة الفضل فيها يعود إلى نعمة العقل فينا، يبين هذا النص أيضا أن العقل موطن الوعي الذي علق عمله على شيء يقدحه، ويوقظه واختصر هذا الشيء في الأدب وتقويته في التجربة التي منها ما يعيشه بنفسه، ومنها ما يحصل عليه من الأدب ؛ وكذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب، وتقويه التجارب، هذه الجملة توضح علاقة الأدب بالوعي بشكل مباشر على اعتبار العقل هو موطنه، كما ذكرت، وكأن وعي الإنسان خامل، فيأتي الأدب فينشطه، وما كان لهذه المعادلة أن تتم إلا بعد تفاعل عقل الإنسان ووعيه مع هذا الأدب فلا يكتفي من الأدب بالقيم الجمالية فحسب، بل عليه مواجهة ما يقرأ؛ كي يحدث الانفعال العقلي الذي تتولد عنده شرارة الفهم، والإدراك، والتعلم، والإضافة، أو التغيير ومن ثم التعامل المُجدي مع الأدب.

المقدمة الرابعة، مقدمة ابن المقفع:

اهتم ابن المقفع بالمتلقي فخصه بجزء منفصل عن الكتاب، حيث قام بتزويد الكتاب بمقدمة خاصه به تكشف وجهة نظره في بعض الأمور الخاصة بعلاقة المتلقي بالكتاب؛ ونظرا إلى أن المقدمات في أغلب الأحيان أول شيء يقرأه المتلقي، أراد أن يقدم له ما يعينه على تحقيق أفضل نتائج من قراءة هذا العمل، وهذا ما يهدف إليه البحث أيضًا.

فصنف ابن المقفع القراء إلى : حكيم، وسفيه، ومتعلم، فيقول في الأخير "والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره، ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم" (٢٠)، وكأن قارئ الكتاب حدث له شيء من الأثر غير قابل أو خاضع للتفسير المنطقي، فهو لم يدرك ولم يحدد منه إلا نتيجته ، وهو وقوع شيء جليل في النفس، فحينها يكون قد لامس شيئًا من لاوعي المتلقي لا يدري صاحبه ما هو بالتحديد، لأنه كما ذُكر أن هذه المنطقة لم يُفسر كل ما فيها.

وها هو ابن المقفع لم يكتفِ بالطراوة التي يصبغها الفن القصصي على المتلقي، بل جاء أسلوبه مبهجًا للقلبً، ومريحًا للفكر ومقنعًا من الناحية العقلية، وبالنسبة للأمر الثاني فلقد أعطى ابن المقفع للمتلقي مفاتيح التعامل مع مؤَلفَه، بشكل قصصي واضح وشيق، ووضع ذلك في المقدمة الخاصة به، وكأنه يقدم للمتلقي رسالة، بأن هذا العمل لا يستحق منك إلا أن تكون واعيا له، وتخرج منه بجُل ما فيه، وتحقق أكبر قدر من النفع وإليك ما يعينك على ذلك؛ كي يتحقق له بعض الرضا النفسي بالشعور بالقدرة على تحقيق هذه المنفعة.

وأول هذه الأشياء: إعمال الروية فيما يقرؤون، وألا يكون شغله الشاغل إنهاء ما يقرأ، أو كَم من الكتب يُحصل، فإذا كان هذا كانت قراءته بلا فائدة، ويسوق مثال في ذلك قائلا: "كما لو أن رجلاً قدم له جوزا صحيحا، لم ينتفع به إلا أن يكسره" (٢١)، ويقول في موضع يلي هذا بأن من يقرأ، ولا يفيد مما قرأ، تزداد عليه الحجة أكثر ممن لم يقرأ، وكأنه يلوم القارئ، كيف يعرض عليه العلم ويخرج منه كما أتى له؟ " وأقل الناس عذرا في اجتناب محمود الأفعال، وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك، وميزه، وعرف فضل بعضه على بعض، كما لو أن رجلين أحدهما بصير، والآخر أعمى، ساقهما الأجل إلى حفرة، فوقعا فيها.... أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير". (٢٢)

ويمتد خطابه لنفس المتلقي فإذا قرأ، وفهم لم يكن هذا كافيا، ولابد أن يكون واعيًا، فالعلم لابد له من عمل يحققه، ويُعلي من قيمته وقيمة من ألمَّ به، فيقول في العلم "هو كالشجرة والعمل به كالثمرة، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف، ثم سلكه على علم به، سمي جاهلا"، (٢٣) والجاهل أيضا من لم ينفعه علمه في حياته واستطاع به حسن الاختيار والسير، وحسن التصرف، ففي بداية الأمر يطلب من المتلقي أن يكون على وعي لغوي، وبلاغي، ودرجة من البحث، والتثقف تعينه على فهم محتوى ما يقرأ ؛ وعليه إكمال وعيه بإدراك الأفضل واتباعه، وإلا سيكون كـ "..المريض العالم بردىء الطعام، والشراب، وجيده، وخفيفة، وثقيلة ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة، والتخلص من علته." (٢٤) وكأن المتلقي هنا مريض، وما تعلمه فيه الخلاص من هذه العلة ، ولا يوجد سبب لضياع هذه الفرصة في الشفاء إلى الشره، اتباع النفس الأمارة بالسوء ، حين تعلق بشيء فيه الضرر، وتقف عليه، وينتقل إلى نصحَ المتلقي نصحًا عامًا فيقول: " ينبغي على العاقل أن يكون لهواه متهما؛ ولا يقبل من كل أحد حديثا ؛ ولا يتمادى في الخطأ إذا ظهر...وأن يصدق بالقضاء والقدر ، ويأخذ بالحزم ، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره"(٢٥)، ويعاود خطابه للقارئ فيطلب منه أن يديم النظر في الكتاب من غير ضجر، حيث إن الفكر يحتاج مشقة وربما تجلب المشقة السأم، والضرر. فلابد أن يكون صبورًا مرنًا، ولا يكتفي بظاهر ما يقرأ عن باطنه، ولا يشغله الهزل منه عن القصد والمغزى، كما يسهل على القارئ المهمة في آخر تلك المقدمة، فيأتي بتوضيح الأغراض التي كتب فيها الكتاب.

الأول: يعد أقلها عمقا، فما قُصِد من وراء وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة فيه إمتاع لأهل الهزل من الشبان، والغرض من هذا استمالة قلوبهم.

الثاني: ليكون أُنسًا لقلوب الملوك.

الثالث: تأتي على أثر سابقتها، فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولينتفع بذلك المصور، والناسخ أبدا.

الرابع: خاص بالفيلسوف نفسه. (٢٦)

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى بعض النتائج من أهمها ما يأتي:

١. إن فكرة تقبل الآخر وعدمها لم تكن مرتبطة فقط بعلم النفس والمباحث السيكولوجية، بل تنعكس أيضا لدى قراءة الأعمال الأدبية، وتساعد المتلقي في تكوين وعي ذاتي سليم.

٢. إن المقدمة جزء مهم من الكتاب، تعين المتلقي على التعامل معه، فجاءت مقدمات كليلة ودمنة لتوضح علاقة الوعي الفردي والمجتمعي بالأدب، وبيان أثر كل منهم في الآخر.

٣. ارتباط الوعي واللاوعي بالتلقي بشكل مباشر وغير مباشر، حيث يغير وعي الأفراد من مسار القراءات لديهم، ويجعلهم أكثر اختلافًا، وهذا الذي يثري القراءات التاريخية للنصوص.

٤. تساعد القراءة الواعية على فهم قيمة الأدب والأدباء وانعكاس ذلك على وعي المجتمعات العام.

٥. يساعد اللاوعي الكاتب على تكوين رؤية نصية خاصة تنتقل هذه الرؤية إلى القراء فتصبح أكثر خصوصية لهؤلاء القراء.

الهوامش:

[1]* أ_ الوعي عرفه ابن منظور بأنه: (حفظ القلب للشيء ،وعى الشيء والحديث يعيه وعيا وأوعاه حفظه وفهمه وقبله فهو واع، وفلان أوعى من فلان أي أحفظ وأفهم، الوَعِيُّ الحافظ الكيس الفقيه) انظر: لسان العرب، ابن منظور ،الجزء ٢٠، فصل الواو ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،القاهرة ،د ت ص)٢٧٥

وعرفته (لندأ دافيدوب) بأنه: "تشير الكلمة إلى التنبيه الكلي للشخص، أو حالة التنبيه العادية. وحالات الوعي غير حالات التنبيه العادية التي تعتبر حالات وعي متغيرة (Altered state of consciousness) وهذه الحالات يمكن أن تحدث طبيعيا أثناء النوم أو المرض مثلًا أو عمدًا

"مدخل علم النفس، لندا ل. دافيدوب ، ترجمة :سيد الطواب ، وآخرون ، مراجعة: نجيب خزام ،الدار الدولية للنشر والتوزيع ،ط٣ ،القاهرة ،١٩٩٢ ص٢٩٢

ب_ اللاوعي (اللاشعور):

عرفه (المليحي) بأنه:" ذلك الجانب من النفس أو الشخصية ويتكون من المعاني البدائية، التي لم تكن قط شعورية، ومن الميول والرغبات والخبرات المكبوتة، أي التي كانت شعورية فيما مضى ثم طردت من حيز الشعور" علم النفس المعاصر، حلمي المليحي، دار النهضة العربية، بيروت ،١٩٧٢، ص١١٤.

(٢) كليلة ودمنة ، ص٧٦.

(٣) انظر أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البنتاني ، دار الجيل بيروت لبنان ، ص ١٣٠

(٤) سوسيولوجيا الغزل العربي، الطاهر لبيب، ترجمة: مصطفى المسناوي، دار عيون _دار الطليعة ، ط١، ،ص١٧٠

٦ () كليلة ودمنة ، ص٦٧.

*انتقلت الثقافة الهندية إلى العرب عن طريق الترجمات الفارسية، أو عن الفرس أنفسهم، وبعض الهنود الذين جاءوا بلاد العرب للكسب والعمل ،وانتشرت الحكم الهندية والقصص والأساطير الهندية بين العرب مما كان له أثره في بعض الكتابات العربية أمثلة السندباد البحري، وألف ليلة وليلة، وجاءت في الكتاب بعض الحكم الهندية المنتشرة بين الناس ، وظهرت في كليلة ودمنة بعض الأفكار التي تعود في أصلها للثقافة الهندية أمثلة فكرة تناسخ الأرواح، وأنها لا تموت وأنها تنتقل من بدن لبدن جاءت هذه الفكرة في قصة الجارية التي تحولت إلى فأرة. فلقد تأثر ابن المقفع بهذه الثقافة مثله مثل باقي العرب أو الفرس.

(٧) من حديث الشعر والنثر ،طه حسين ، دار المعارف، بمصر ، القاهرة ، ط١ ،١٩٦٩م ،ص٣٣.

٨ كليلة ودمنة، ص٨

٩( ) من حديث الشعر والنثر ، طه حسين ،ص٣١.

(١٠) انظر المؤثرات في كتاب كليلة ودمنة، بحث :د. مجدي عبد المعروف حسين أحمد، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية_ مركز بحوث القرآن الكريم والسنة النبوية،٢٠١٦، عدد خاص، س٩، . ٩٧ – ٩٩.

(١١) سورة النجم، الآية: ٣٩ – ٤٠ .

(١٢) محمد بن عبدالله (النيسابوري)_المستدرك على الصحيحين- دار الكتب العلمية -ج٢-ط١- بيروت- ١١٤١هـ -١٩٩٠م، ص٢

(١٣) كليلة ودمنة، د. عزام ١٨ .

(١٤) انظر: المؤثرات في كليلة ودمنة، ص:٧٩.

(١٥) كليلة ودمنة، ص ٩٣.

(١٦) كليلة ودمنة د. الحسيني الحسيني ص:٨٠.

(١٧) كليلة ودمنة ص٦١.

(١٨) نظر كليلة ودمنة ، ص٤٧.

(١٩) كليلة ودمنة ،ص٦٧

(٢٠) كليلة ودمنة ص:٧٦ .

(٢١) كليلة ودمنة ص:٧٧

(٢٢) كليلة ودمنة ، ص٧٨

(٢٣) كليلة ودمنة ، ص٧٨

كليلة ودمنة ص ٩٧. (٢٤)

كليلة ودمنة،ص٨٠ :٨١ (٢٥)

(٢٦) كليلة ودمنة ص:٧٤.

المراجع

القرآن الكريم

- أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البنتاني، دار الجيل بيروت لبنان.
- سوسيولوجيا الغزل العربي، الطاهر لبيب، دار عيون، دار الطليعة، ط١، ترجمة: مصطفى المسناوي.
- علم النفس المعاصر، حلمي المليحي، دار النهضة العربية، بيروت ،١٩٧٢م.
- كليلة ودمنة، عبد الله ابن المقفع، إعداد وتقديم: د. الحسيني الحسيني، الكرنك للنشر والتوزيع.
- لسان العرب، ابن منظور، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د ت، ج٢٠.
- محمد بن عبد الله (النيسابوري)–المستدرك على الصحيحين– دار الكتب العلمية ج٢، ط١، بيروت ١١٤١هـ _٠٩٩١ م.
- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف، بمصر، القاهرة، ط١ ،١٩٦٩م.
- مدخل علم النفس، لندال. دافيدوب، ترجمة: سيد الطواب، وآخرون، مراجعة: نجيب خزام، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط٣، القاهرة ،١٩٩٢م.